مقدمات قصائد المفضليات الجاهلية: أنواعها وتطورها

Mufaḍḍaliyat: The Introductions of the Poems of the Pre-Islamic Their types and Evolution

أحمد فوزي حسين
د. هلال محمد جهاد
جامعة الحمدانية– كلية التربية

Ahmed Fawzi Hussien
Dr. Helal Mohammed Jehad
Al-Hamdaniya University - College of Education

Ahmedalaga849@gmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
٢٠٢٢/٨/١٤	٢٠٢٢/١٠/٩

الكلمات المفتاحية: المفضليات، تطور المقدمات الشعرية، أنواع المقدمات.

Keywords: preferences, development of poetic introductions, types of introductions.

الملخص

حَظِيَت المفضليات باهتمام كبير من الدَّارسين والنَّقاد ، فتناولوها من منظورات متنوعة ركزت على قضايا معينة تبعاً للمناهج العلمية التي طبقوها، يركز هذا البحث على جانب لم يوف حقه من الدراسة، وهو دور الشَّاعر وعياً وشخصيةً في بناء القصائد المفضلية الجاهلية ويدرس تجليات الوعي الفردي في شكل القصيدة ومضمونها، وذلك انطلاقًا من فكرة مفادها أنَّ تنوع المواضيع والأغراض الشَّعريَّة نتجت عن جهود فردية "ذاتية" استجابت لمتطلبات العصر ورغبةُ الذَّوق العام حينها، وكان أهم ما ركز عليه الشعراء مقدمات القصائد التي ألفوها، لأنها أي المقدمات هي الأساس الذي يقوم عليه البناء الفني للقصيدة، ومن هنا فقد عني البحث بدراسة هذه المقدمات وتصنيفها إلى فئات وتحليلها للكشف عن خصائصها التشكيلية، وتوصل البحث أن مقدمات القصائد تكشف عن وعي عميق بالواقع عناصر التشكيل الفني المتنوعة، وأن هناك تطورًا في بناء هذه المقدمات يكشف عن دور فاعل للوعي الفردي فيه.

Abstract

The Mufaḍḍaliyat have received great attention from scholars and critics. They dealt with them from a variety of perspectives that focused on specific issues according to the scientific methods they applied. This paper focuses on an aspect that has not been studied enough, which is the role of the poet consciousness in forming the preferred pre-Islamic Mufaḍḍaliyat poems and studies the manifestations of individual awareness in the form and content of them, based on the idea that the diversity of topics and poetic purposes resulted from individual "subjective" efforts that responded to the requirements of the age and the desire of public taste at that time. The most important thing that poets focused on was the introductions to the poems they composed, because they are the foundations on which the artistic construction of the poem rests. Hence, the paper is concerned with studying these introductions، categorizing them into categories, and analyzing them to reveal their forming properties. The most important conclusions of the paper is that the introductions of these poems reveal a deep awareness of the reality through the various elements of artistic formation، and that there is a development in the construction of these introductions that reveals an active role of individuality in it.

مقدمات المفضليات الجاهلية وأنواعها:

يُعدُ الطَّلل من أهمِّ الموضوعات التي تتردد في القصيدة الجاهليَّة لعلاقتهِ الوثيقة بإنسانية الشَّاعر الجاهليّ وظروفه وأسلوب حياته وكذلك ميولهِ وعواطفهِ بماضيه وحاضره[١]، وقد حاول النَّقاد القدامى والمحدثين تفسير ظاهرة الوقوف على الأطلال، فذهب ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) إلى أنَّها تمثل جزءاً أساسياً في القصيدة العربية وربطها بأسباب نفسية في قوله : "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أنَّ مقصد القصيد إنَّما ابتدأ فيها بذكر الدِّيار والدُّمن والآثار فبكى وشكا، وخاطب الرَّبع واستوقف الرَّفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظَّاعنين عنها إذ كان نازلة العمد في الحلول والظَّعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان."[٢] وحاول ابن رشيق القيروانيُّ (ت٤٥٦هـ) أن يُعلل ظاهرة الوقوف على الأطلال تعليلاً يربط بينها وبين طبيعة الحياة الجاهلية ، فقال : "وكانوا قديماً أصحاب خِيام يتنقلونَ من موضعٍ لآخر، فلذلك أوَّل ما تبدأ أشعارهم بذكر الدِّيار". [٣]

إذاً ممَّا سبقَ ذِكرهُ فإنَّنا نلاحظ المكانة التي يحتلها الأطلال في نفوس الشَّعراء وتُحركُ مشاعرهم الجياشة من المَّ رحيل أهل الدِّيار التي كانت عامرةً بوجودهم ،ظاهرة حبُّ الارض والمكان و رمزيته في نفوس الشَّعراء وتحويل هذا الرَّمزية إلى أبيات وقصائد يبدأُ بذكر الاطلال ودعوة الشَّاعر أصحابه للبكاء عليها واستذكار ماضيه، فالهوية الثَّقافية للطَّلل إذن تنتقل بالضَّرورة ، من الطَّبيعي النَّاجز والمحايد إلى الثَّقافي حيثُ أنَّ وظيفة الطَّلل وظيفة رمزية يبرز بها الانسان العربيُّ القديم "لكي يؤسس ذاته في وجود الاشياء حين يجعلها معبراً إلى معنى ".[٤] ،واتبع ذلك أغلب الشَّعراء بدءاً بأُمرئ القيس وطرفة وغيرهم، فكانت عادة متبعة لدى الشَّعراء .

---

(١) ينظر: الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٧٠: ٢٥٧.

(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ابي محمد عبدالله بن مسلم، تحقيق: الشيخ حسن تميم والشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار احياء العلوم، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧: ٣١.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ط١، ١٩٣٤: ١/ ٢٢٦ .

(٤) جمالية الشعر العربي (دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعر الجاهلي)، هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧: ١٣ .

ما يهمنا الآن هو هل الشَّعراء كلهم التزموا بهذا العادة أو بهذا الطَّريقة في نظم الأشعار؟ وهل كان الخروج عن هيكلية القصيدة المتبعة ذا علاقة، والخروج على أنظمة القبيلة وسياستها ووحدتها ؟

إنَّ الالتزام بأنظمة القبيلة وتفرد الشَّاعر وعدم التزامه بالمقدمات الطَّللية ليست موضع إشكالٍ بتاتاً ، خاصَّة ونحن نلاحظ مكانة الشَّاعر في قبيلته كونه عنصراً فعالاً في الدِّفاع عن شرف قبيلته وثوابته ، أما ابتكار الشُّعراء طريقة جديدة في بناء القصيدة دون مقدمات طللية مثلما نجد عند شعراء المفضليات فالبعضٌ منهم لم يلتزم بالمقدمة الطَّللية في مستهل قصيدته بل لجأ إلى الموضوع الرَّئيسيِّ في القصيدة مباشرةً ، حيثُ نلاحظ مثلاً (لامية) الشَّنفرِى كيف بدأوها خارجاً عن العرف السَّائد لابتكار القصيدة والغى فيها المقدمة بل وجاءت من أجود الشَّعر وأنقى الابيات رونقاً وجمالاً ، حيث، يقولُ عنَّها أبو عليٍّ القاليّ المتوفي سنة (ت٣٥٦هـ) بوصفها قصيدة "وهي من المقدمات في الحسنِ والفصاحة والطُّول."[١]

وأشادَ أبوهلال العسكري المتوفى سنة (ت٣٩٥هـ) بتفرد الشَّنفرِى وتفوقه على أقرانه الشُّعراء وتميزه عنهم بعدم إتباع المنهج الذي سار عليه البقية الذين سبقوه "وهو فصيحُ في لفظه، جيدُ في وصفه." [٢]

والوعي الفرديُّ حاضر وله الدُّور الابرز بابتكار قصائد بدون مقدمات طللية وتعويضها بهيكلية مختلفة عن الأصل تماماً ، فلنَّأخذ مثلاً مقدمات قصائد (تأبط شراً) نموذجا لابتكار الفردية بمقدمات مختلفة تماماً عن الذين سبقوه ، وهو بذلك يعد مجدداً ومبتكراً لهيكلية القصيدة الجاهليَّة في ديوانه :

يا عيدُ مالَكَ من شوقٍ وإيراقِ ومَرّ طيفٍ على الأهوال طِراقِ

فلابدَّ أنّ ذلك كان استناداً إلى تقدير المفضل أنَّ تأبَّط شراً وصل إلى درجة الوعي بإنشاء القصيدة بأن جعل لها هيكلية تختلف عمن سبقوه وهذا هو الوعي الفرديُّ الذي امتاز به تأبَّط شراً.

(١) لامية العرب، عبدالحليم حنفي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٨، ط ١: ٥٩ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه : ٥٩.

ولنعد الى بقية قصائده ونطلعُ عليها في ديوانه سوف نجدها تماماً خالية من المقدمات الطَّللية بل كلُّها مقدمات تختلف إحداها عن الأخرى لربَّما جاء هذا التَّغير متاثراً ببيئة الشَّاعر أو نفسيته الفردية. لو عدنا لأول مطلع ذكره المفضل في بداية المفضليات سنجد أنَّ الشَّاعر قد شبَّه المرض والارق بالعيد وهو نهجُ سار عليه بقية الشُّعراء من بعده، فابتدأ الشَّاعر مطلع قصيدته بالمرض الذي يلازم الانسان في سفره وترحاله وهو بعيدُ عن الاهل والدِّيار ، والمطلع الثَّالث الذي يبتدئ بها تأبَّط شراً قصته مع الغول الذي يصارعه ويتغلبُ عليه، ونلاحظ بأنَّ المقدمة قد تنوعت عند تأبَّط شراً لربَّما هذا التَّنوع قد أتت على البحر الطويل الذي نظم به الشَّاعر بعض قصائده فمن سمات هذا البحر قبوله أنواعاً متعددة من الاغراض الشَّعرية كالهجاء والفخر والمدح وربَّما كانت بيئة الشَّاعر هي السَّبب وراء اختلاف المقدمات عنده ، ونحن نعلم أنَّ الشَّاعر من طبقة الشُّعراء الصَّعاليك المعروفين بأنَّهم خارجون على الأنظمة القبلية الثَّابتة ذات القيود الصَّارمة على الشَّعراء ، أو لربَّما نفسيته المكبوتة هي التي جعلته يبتكر ويعي ويدرك أشياءً جديدة حول القصيدة العربية[١]، إذ يرى (لاكان) أنَّ اللاشعور كاللغة فميكانيزمات اللاشعور من الممكن أن تعبر عن نفسها في عملية لغوية وبلاغية وتتبدى في تكوين الاعراض وتظهر لنا نتاج ذلك متمثلة بنتاج إبداعي جميل [٢]، ومن الجدير بالذِّكر أن نذكر مكانة قصائد تأبَّط شراً فقد استشهدَ ابن منظور في معجمه لسان العرب بواحد وستينَ بيتاً من قصائد تأبط شراً ، وهذا يدل على المكانة العالية لهذه القصائد وما لها من تجديد ووعي [٣].

حصلَ التَّغير في القصيدة العربية على يد الشَّعراء المفضليات وأولوا الاهتمام الكثير بمقدمات القصائد العربية فتنوعت المقدمات إلى أنواعٍ كثيرة لم تكن موجودة سابقاً، وإن وُجِدَتْ فإنَّها كانت ضمنية ، فنجدُ تارةً عند شعراء المفضليات أنَّهم بدءوا قصائدهم بذكر الطَّيف أو بالوصف أو بالهجاء أو بالمدح أو التَّشبيب أو بالنَّسيب وهذا الاخير حالة نادرة لم تتعود عليها العرب قديماً (سوف نأتي لذكرها)، وكلُ هذا التَّغير الذي أصاب المقدمات بفعل العقل الواعي المتفرد لديهم ، وسوف نعرض مجموعة من النَّماذج لمقدمات القصائد في كتاب المفضليات .

---

(١) يُنظر: ديوان تأبط شراً وأخباره، علي ذوالفقار شاكر،،دار القرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٤: ١٣-١٤.

(٢) يُنظر: في التحليل النفسي، د. نيفين زيور، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط١، ٢٠١٢: ٩٨.

(٣) يُنظر: ديوان تأبط شراً وأخباره: ١٢.

ففي مقدمة الابيات لقصيدة الاسود بن يعفر حيث يقول : [١]

نَامَ الخَلِيُّ وَمَا أُحِسُّ رُقَادِي والهمُّ محتضِرٌ لَّديَّ وِسَادِي
منْ غيرِ ما سَقَمَ ولكن شَفَّني هَمٌ أَرادهُ قَدْ أَ صابَ فوادي
وَمِنَ الحوادثِ لا أبا لَكِ أَنَّني ضُرِبَتْ عليَّ الأرضُ بالأسدادِ
لا أهتدي فيها لموضعِ تَلْعَةٍ بينَ العراقِ وبين ارضِ مرادي

نلاحظ من أنَّ الأسود بن يعفر وعلى غير المعتاد من انَّه قد لجأ إلى إنشاء قصيدة مغايرة تماماً عن أشكال القصائد الجاهلية الاخرى ، خاليةٌ من المقدمات الطَّللية والأوصاف الاخرى ، إذ نلاحظُ فيه حِسَّه بالموت والفناء ، بحيثُ اصبح الشَّاعر لا يبالي لأية حادثة قد تصيبه مستقبلاً " كأنَّما الأرضُ أغلقت ابوابها واطبقت على الذَّات الشَّاعرة محاصرة إياها حصاراً مطلقاً يحجب عنها الوجود ويقذفها إلى تيه تعجز فيه عن الاهتداء إلى مرتفع من الأرض تنجو به من همها الضَّاغط "[٢].

وأيضاً لا تخلو قصائد الشُّعراء المفضليات من مقدمات غزلية ناتجة من وعي فردية رغبة للتَّجديد في هيكلية القصيدة وتطورها ، يقول بشر بن أبي خازم في مقدمة قصيدته [٣] :

عَفَت منْ سُلْيمَى رَامَةٌ فَكَثِيبُها وَشَطَتْ بِها عَنْكَ النَّوى وشُعُوبُها
وَغَيِّرها ما غَّيرَ النَّاسَ قَبْلَهَا فَبَانتْ وحاجاتُ الفؤادِ تُصِيبُها

نلاحظ أن الشَّاعر بدأها بالغزل بدلاً من وصف الرَّحيل والأطلال البالية . والشَّاعر نفسه نلاحظه ايضاً في قصيدةً أخرى بدأ مقدمته بالغزل ، لربَّما انتهج لنفسه طريقاً مغايراً لما سار عليه الشُّعراء الذين سبقوه ، يقول : [٤].

أَحقٌ مَّا رَأَيْتُ أمِ احتلامُ أمِ الأهوالُ إذ صَحْبِي نِيامُ
ألا ظَعَنَتْ لِنِيَّتها إدامُ وَكُلُّ وِصالِ غَانِيةٍ رِمامُ
جَدَتُ بِحُبِها وَهَزَلْتُ حتَّى كَبِرَتُ وَقِيلَ إِنَّكَ مُستَهامُ

---

(١) المفضليات، ابو العباس المفضل بن محمد الضّبي، شرحه: الانباري القاسم بن محمد بن بشار، تحقيق،كارلوس يعقوب لايل، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت،ط١،١٩٢٠: ٤٤٥-٤٤٦ .

(٢) الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، كمال ابو ديب، مطابع الهيئة المصرية العامة، مصر، ١٩٨٦: ٣٧٣.

(٣) المفضليات: ٦٤١.

(٤) المصدر نفسه: ٦٤٨- ٦٤٩.

وَقَدْ تَغْنى بِنا حِيناً وَنَغْنى بِها وَالدَّهرُ لَيسَ لَهُ دَوَامُ
لَيالِي تَسْتَبِيكَ بِذِي غُروبٍ كأنَّ رُضَابَهُ وَهناً مُدامُ

يصفُ لنا بشر بن ابي خازم خلوه مع أصحابه في القفار وكيف أنَّه انفرد بفكره وخياله السَّارح ليلاً وأصحابه كلُّهم غارقون بنومٍ عميق ، وهو يفكر بحبيبته وتفاصيلها الجميلة ، والشَّاعر يصف نفسه كالسَّبيِّ لها من شدةِ ولَعِه بها ، وحبه الشَّديد لها .

أمَّا في الفخر بالنَّفس ، فكان له نصيبٌ في كتاب المفضليات ، فالشُّعراء افتتحوا مقدمات قصائدِهم بالفخر ايضاً ، كما في قول عامر بن الطُّفيل : (١)

لَقَدْ عَلِمَتْ عُلَيَاَ هوازِنَ أَنَّني أَنا الفَارِسُ الحامِي حَقِيقَةَ جَعْفَرِ
وَقَدْ عَلِمَ الْمزنُوقُ أني أُكُرُّهُ على جَمعِهم كَرَّ الْمنيحِ المُشَهَرِ
إذا أزوَرَّ مِنْ وقعِ الرِماحِ زَجَرتُهُ وَقُلْتُ لهُ ارجِعْ مُقبِلاً غَيْرَ مُدبِرِ
وأنبأتُهُ أنَّ الفِرارَ خَزَايةُ على المرءِ مَا لمْ يُبلِ جُهداً وَّ يُذْرِ
ألستَ تَرى أَرماحَهُم فِيَّ شُرَّعاً وأنتَ حِصانٌ مآجِدُ العِرقِ فأصبِرِ

يتقدم عامر بن الطُّفيل بهذا الأبيات مفتخراً بنفسه في الشَّجاعة والاخذ بالثَّأر ، إذ يهجم على العدوِّ وعلى جمعهم ككر المنيح المشهر –ايْ: يصولُ ويجول بالأعداء ، فهو مقبل على الأعداء لا مدبر ، فهوا ايضًا يعذر نفسه من الغدر ، إذ كانت من عادة العرب إذا قُتِلَ أحد بالمعركة غدراً فهو بذلك يُعد مفخرةً له لا منقصة ، وفي صدر البيت الاخير نرى عامر قد أفتخر بحصانه ايضاً بكونه مُشَبَّعٌ من العلفِ دلالة على كرم ونبل صاحب الحصان .

وفي الفخر نفسه ، الحارث بن ظالم ايضاً كان له نصيبٌ بافتتاح قصيدته بالفخر عن نفسه ، يقول: (٢).

قِفَا فاسْمَعَا أُخْبِرْكُما إذْ سألتما مُحارِبٌ مولاهُ وَثْكلانُ نَادِمُ
فأَقسِمُ لَولا مَنْ تَعَرضَ دُونَهُ لَخَالَطهُ صَافِي الحديدَةِ صَارِمُ
حَسِبتَ أبا قَابُوسَ أَنَّكَ سَالِمٌ وَّلمَّا تُصِبْ ذُلاً وَّأنْفَكَ راغِمُ
فإنْ تَكُ أَذوَادٌ أُصِبنَ وصِبيةٌ فَهذا ابنُ سَلْمَى رأسُهُ مُتَفاقِمُ
عَلَوْتَ بذي الحيَّاتِ مُفرِقَ رَأسِهِ وَهَلْ يَرْكَبُ الْمَكْرُوه إلا الْأكارِمُ

(١) المفضليات: ٧٠٦– ٧٠٨.

(٢) المصدر نفسه: ٦١٦.

يفتخرُ الشَّاعر ببداية قصيدته بقتله لابن الملك هشام و يصفه بأنَّه ثكلانٌ بأبنه ونادمٌ ، ولولا الحرس والحاشية لطال القتل بالملك نفسه ، من خلال تحليل القصيدة نلاحظ أنَّ الشَّاعر طَوَّر بوعي فرديٍّ متخذاً من الفخر بنفسه باباً جديداً في تغيير مقدمة القصيدة والابتعاد تماماً من المقدمة الطَّللية الذي اصبح مملاً لمتذوقي الشِّعر والجمهور الشِّعري آنذاك ، ونلاحظ ايضًا أنَّه يصف سيفه.

وللحكمة ايضًا نصيبٌ استخدمه الشُّعراء بوعي فرديٍّ في تطوير هيكلية القصيدة الشَّعرية، يقول المرقش الأكبر واصفاً ذهاب شبابه و انقضاء مدته : (١)

هَلْ يَرجِعنَّ لي لَمتي إن خضَبتُها إلى عَهدها قَبْلَ الْمشِيبِ خِضابُها
رأتْ أُقحوانَ الشَّيبِ فَوقَ خَطِيطَةٍ إذا مُطِرتْ لَمْ يَستَكِنَّ صُوَابُها
فإن يُظعِنِ الشَّيبُ الشَّبابَ فقد تُرى بِهِ لِمَّتي لَمْ يُرْمَ عَنْهاَ غُرابُها

شبه المرقش الأكبر بياض شعره بالأقحوان و ومرَّة أخرى شبههُ بالخطيطة كالأرض التي لا يصلها الماءَ حيثُ لا زرعَ فيها ، واخيراً شبه سواد شعره بالغراب ، نلاحظ قدرة الوعي للشَّاعر المتمثل بالتَّفكير الفرديِّ الإبداعيِّ لتطور مقدمة قصيدته بذكر الشَّيب و المشيب واستخدام التَّشبيهات المناسبة لذلك .

ولذهاب الشَّباب وانقضاء مدته يصف لنا ايضا سلامة بن جندل في مقدمة قصيدته ايضا معاني متضمنه بذلك تنم عن قدرة الشاعر الإبداعي في التغير وبجهود ذاتية في مقدمة القصيدة الجاهلية ، يقول : (٢)

أودى الشَّبابُ حميداً ذو التَّعاجيبِ أودى وذلك شـأوٌ غيرٌ مـــطلوبِ
ولَّى حثيثاً وهذا الشَّيبُ يطلُبه لو كان يُدركُهُ ركضُ اليعـــاقيبِ
أودى الشبابُ الذي مَجْدُ عواقِبثهُ فِيهِ تَلذُ ولا لذاتِ للشَّيبِ

يستذكر الشَّاعر مرحلة شبابه بقدمة القصيدة وكيف أنَّه كان يسرُ النَّاظرين ، إذ انَّها مرحلة النَّضج والحيوية والقوة الكامنة لدى الشَّباب ، إذ هذه المرحلة المهمة لديه قد ذهب ومضى عليها الدَّهر، وأعتزَ بقومه بني سعد ثمَّ أخذ يصف السُّيوف والرِّماح ، نلاحظ أنَّ الشَّاعر قد أنتهج نهجاً يختلف تماماً عن الشَّعراء السَّابقين ، فهو لا يتأسف على رحيل المعشوقة أو الحبيبة، هنا يتأسف على ذهاب أهمِّ شيء عند الانسان الا وهو شبابه ، لأنَّ الشَّاعر تفرد بوعيه هذا وأصبح بحكمته وفخره بالقصيدة مختلفاً تماماً عن الذين سبقوه من الشَّعراء ولى هذه المرحلة وركض اليه المشيب ركضة اليعاقيب وهو ذكر الحجل ، دلالة على

(١) المفضليات: ٤٨٤.
(٢) المصدر نفسه: ٢٢٤-٢٢٦.

سرعة انتهاء فترة الشَّباب ، نلاحظ ايضًا من أنَّ الشَّاعر قد تقدَّم لنا بجهود فردية ذاتية مقدمة متضمنةً حكمةً جميلة ومتغيراً فيها شكل المقدمات القصائد الاخرى .

ومن المهم أنَّ العرب قديماً لم يجروا على أن تبدأ مراثيهم بتلك المقدمات التَّقليدية إلَّا في قصائد قليلة تُعدُ خروجاً على هذا القاعِدة ، يقُولُ ابن رشيق[١] : "ليسَ من عادة الشُّعراء ان يقدموا قبل الرِّثاء نسيباً، كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء " قال ابن الكلبي – وكان علامة – لا أعلم مرثيةً أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصُّمة :

أرثَّ جديدُ الحبلِ من أمِّ مَعبدِ بِعاقِبةٍ وأخلفتْ كُلَّ موعد

وعلى نفس الخطِّ سارَ في النَّظم بتقديم النَّسيب قبل الرِّثاء المرقش الأكبر في رثاءِ أبنُ عمه ثعلبة بن عوف[٢]:

هل بالدِّيارِ أن تُجِيبَ صَمَمْ لو كان رَسمُ ناطقاً كَلَمْ

من هذا النَّماذج رأينا كيف بالوعي الفرديِّ أدى بالشَّعراء الى ابتكار مقدمات يختلفُ تماماً عن المقدمات الطَّللية السَّائدة وان بقيت المقدمات الطَّللية سائدةً عند بقية الشُّعراء الذين اكتفوا بها ولم يميلوا الى التَّجديد ، والشَّعراء الذين غيروا في المقدمات الطَّللية كثُر نأتي على ذكرهم .

فلو قارنا حياة دريد بن الصُّمة بحياة الشَّاعر الحارث بن حلزة اليشكري الذي ذكره المفضل الضبِّيِّ في مفضليته سنجد أنَّنا بين شاعرين متمكنين تماماً من قول الشَّعر وجمال الأسلوب ، وإلا من حيث البيئة المتاحة والفضاء الواسع أمامهما والحرية المطلقة لهما ، فهذا الحارث اليشكري حيثُ عاش في زمن الودِّ والصَّفاء حيثُ نقل رؤيته المشحونة بهاجس العاطفة والانفعال أثرت بشعره وبرزت اهتماماته الفردية في قول الشَّعر وهو بهذا قد خرج من أسر السُّكوت والصَّمت إلى الحركة والحياة فعلت صنوا الذَّات الفردية في مقدمة القصيدة عنده وكَسَرَ الرَّتابة والتَّقليد الممل الذي كانت شائعةً حينها ، ولهذا نجده قد أطلقَ العنان لمخيلته في وصفها الذي يستمدُ عمقه وامتداده من تحفزه الذَّاتي واستعداده الشِّعري وهو يرتاد حدود التَّجريد وخلق عوالم لغوية مستقلةً عن الواقع[٣]. فمثلاً عَمَدَ الشَّاعر إلى تشكيل نموذج النَّاقة متسلحاً برؤيته الحسية التي لم تكن ببعيدة عن انعكاساتها الشُّعورية ودلالاتها التَّعبيرية التي ما فتئت تراودُ عقله وتلح على وجدانه لتخرج من بين جمالية النَّص صورة لامثيل لها في التَّجرد من الأطلال ، وبهذا كون نفسه رمزاً للإرادة الانسانية الفرديَّة .

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده: ٢ /١٥١ .

(٢) نقلا عن: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، د. حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠: ١١٤.

(٣) ينظر: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي: ١١٧–١١٨.

في دراستنا لأنواع المقدمات عند الشَّعراء المفضليات الجاهليين غالبًا ما نجد أنَّهم أبدعوا بتنوع المقدمات منها بذكر الطَّلل او الغزل او بالفخر، وما إلى ذلك كلٌّ حسب ذاته ومخيلته الابداعية الشِّعريَّة ،إذ ان التَّماهي مع الابداع ضمن بيئة الشِّعر يعدُ أكبر عامل وراء تعدد المقدمات بالقصائد الشِّعرية، والبيئة هي محفزة جيدة لمعرفة الذَّات وأنماط علاقتها مع الاخر والوجود ،إذ يعبر عن نضج الوعي الذاتيِّ ،فالشاعر العربيِّ بطبيعته شامل برؤيته وإبداعه ، حيث غنى للمرأة وللطَّبيعة "ومن خلال تجربته نجد أنَّه يُعبر أصدق تعبير عن تجربة المجتمع العربيِّ في جاهليته "(١).

انتهج الكثير من الشُّعراء نهج تأبَّط شراً بإلغائهم للمقدمة الطَّلليّة ، وإن لم يكن إلغائهم عاماً وشاملاً لبعضِ قصائده ، فهذا الحصين بن الحمام المري ايضاً لم يبدا بالمقدمة الطَّللية والوصف الطَّويل بل اقتصر على الفخر بالنَّفس والتَّنديد بخصومه بأنَّه ظفر بهم ، ويفتخر بشجاعته ، يقول (٢) :

جَـــزى اللَهُ أَفنـاءَ العَشيرَةِ كُلَّها بدارَةِ مَوضـــوعٍ عُقوقاً وَمَأثَما
بَنـي عَمِّنا الأَدنَينَ مِنهُم وَرَهطَنا فَزارَةَ إِذ رامَت بِنا الحَربُ مُعظَما
مـــوالي مَوالينا الوِلادَةُ مِنـهُمُ وَمَولى اليَمينِ حابِســاً مُتَقَسَّما
وَلَمّـــا رَأَيتُ الوُدَّ لَيسَ بِنـافِعي وَإِن كانَ يَومـــاً ذا كَواكِبَ مُظلِما
صَبَرنا وَكانَ الصَـــبرُ فينا سَجِيَّةً بِأَسيافِنـــا يَقطَعنَ كَفّاً وَمِعصَما

نلاحظ من الأبيات أعلاه كيف أنَّ الشَّاعر الحصين بن الحمام المري لم يبدأ قصيدته بأي نوع من أنواع المقدمات بل لجأ إلى صلب الموضوع مباشرةً بوعي فرديٍّ وابتكار ذاتي ليشكل للقارئ قصيدة موحدة الموضوع ، يقولُ أبن رشيق : (٣) " من الشُّعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النَّسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة ، وذلك عندهم هو : الوثب ، والبتر ، والقطع ، والكسع ، والاقتضاب ، كل ذلك يقال ، والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء ."

(١) آثار التجربة الحياتية في الإبداع العربي، عبد الكريم غلاب، مجلة الاكاديمية المغربية، المغرب، ١٩٩٢، العدد: ٩٤: ١٠٢.

(٢) المفضليات: ١٠٠.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ١ / ٢٣١.

وهذا عبد يغوث بن وقاص الحارثيّ ينشد قصيدته حين هُزِمَ في يوم الكُلاب الثَّاني وأسِرَ ، بمقدمة نهى فيها صديقه عن لومه عما أصابه حين الأسر ، وكما نعلم فإنَّ عبد يغوث كان سيد قومه وقائدهم ، يقول [1] :

أَلا لا تَلُوْمَانِي كَفَى اللَّومَ مَا بِيَا وَمَا لَكُمَا فِي اللَوْمِ خَيرٌ وَلا لِيَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ المَلامَةَ نَفعُها قَلِيْلٌ وَمَا لَوْمِي أَخِي مِن شمَالِيَا
فَيَا رَاكِباً إِمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَن نَدَامَايَ مِن نَجرانَ أَن لا تَلَاقِيا
أَبا كَرِبٍ وَالأَيهَمَينِ كِلَيهِما وَقَيساً بِأَعلى حَضرَمَوتَ اليَمانِيا
جَزَى اللَهُ قَومي بِالكُلابِ مَلامَةً صَريحَهُم وَالآخَرِينَ المَوالِيا
وَلَو شِئتُ نَجَّتني مِنَ الخَيلِ نَهدَةٌ تَرى خَلفَها الحُوَّ الجِيادَ تَوالِيا

تشكلت المقدمة لدى عبد يغوث الحارثيُّ بصورة مغايرة تماماً عن الذين سبقوه ،إذ الحالة النَّفسية الذي هو به جرَّاء أسره ولوم القوم عليه جعله يشكل من المقدمة قطعة جميلة بوعي ذاتيٍّ من الشَّاعر ، فاللَّوم والمعاتبة للفارس الشَّجاع جعله يتألم من الموقف فأبدع لنا بوعي في تطوير هيكلية مغايرة للقصيدة ، حيثُ كان قد وقع أسيراً بيد بني تميم بيوم كُلاب ، وهو يدعوا أصحابه ومحبيه لكف اللَّوم عليه ، لأنَّ الوضع الذي هو فيه لا يحتاج من أحدٍ لومه ، وهو بنفس الوقت شمائله وأخلاقه لا يقدران على اللُّوم به .

ولذي الإصبع العَدوانيُّ قصيدة أيضاً لا مقدمة طللية فيها بل لجأ فيها مباشرة الى فخره بنفسه ومقارنته بأصحابه بأنهم لا يصلون إلى ما وصل إليه هو عندما كان شاباً يافعاً ، يقول[2]:

إِنَّكُمَا صَاحِبيَّ لَنْ تَدَعَا لَوْمِي، ومَهمَا أُضِعْ فَلَنْ تَسَعا
إِنَّكُمَا مِن سَفَاهِ رَأْيِكُمَا لا تَجْنُبَانِي السَّفَاهَ والقَذَعَا
إِلاَّ بِأَنْ تَكْذِبا عليَّ ولَمْ أَمْلِكْ بِأَنْ تَكْذِبا وأَنْ تَلَعَا
لَنْ تَعْقِلاَ جَفْرَةً عليَّ ولَمْ أُوذِ نَدِيماً ولَمْ أَنَلْ طَبَعَا
إِنْ تَزْعُمَا أَنَّنِي كَبِرْتُ فَلَمْ أُلْفَ بَخِيلاً نِكْساً ولا وَرَعَا
أَجْعَلُ مَالِي دُونَ الدَّنَا غَرَضا وما وَهَى مِلأْمُورِ فَانْصَدَعَا
إِمَّا تَرَيْ شِكَّتِي رُمَيْحَ أَبي سَعْدٍ فَقَدْ أَحْمِلُ السِّلاَحَ مَعَا
السَّيْفَ والرُمْحَ والكِنَانَةَ والـ نَّبْلُ جِياداً مَحْشُورَةً صُنُعَا
قَوَّمَ أَفْوَاقَها و تَرَّصَهَا أَنْبَلُ عَدْوَانَ كُلِّهَا صَنَعَا
ثُمَّ كَسَاهَا أَحَمَّ أَسْوَدَ فَيْـ نَاناً وكانَ الثَّلاثَ والتَّبَعَا

(١) المفضليات: ٣١٥– ٣١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٣١١ – ٣١٤.

نلاحظ أيضاً من أنَّ ذي الاصبع كيف صنع مقدمة لقصيدته بطريقة اللَّوم على أصحابه، بوعي إدراكي نحو تغيير بالشَّكل القديم المعتاد ، ومتطوراً نحو بناء قصيدة مغايرة عن السَّابق ، أنتهج فيها طريقة اللَّوم عن أصحابه الذين لا يستطيعون أن يصلوا لما وصل اليه هو من علو شان ومكانة بين أهله وقبيلته ، نستنتج من النَّماذج للمقدمات أعلاه أمرين مهمين لعدم ذكر الاطلال لدى بعض شعراء المفضليات في قصائدهم ، الاول : رغبة شعراء المفضليات في الابتعاد من تقليد أسلوب الشَّعراء المتقدمين .

الثَّاني : الرتابة والملل من هيكلية القصيدة المعتادة ، فلجأ الشَّعراء إلى التَّجديد في الشَّكل والمضمون أحياناً ، ولربَّما يكون الابتعاد عن المقدمات لأسباب أخرى كما يقولُ الدَّكتور حسين عطوان : " والرَّاجح أن هذه الظَّاهرة لا ترجع إلى تمرد بعض الشُّعراء على التَّقاليد الفنية الثَّابتة ، وإنَّما ترجع –في بعض جوانبها –إلى ضياع المقدمات من تلك القصائد الطَّويلة ".

لربَّما السَّببُ الرَّئيسيُّ من عدم ذكر الاطلال في قصائد بعض الشَّعراء يعزى الى أمرين، الاول : عدم تقليد أسلوب شعراء القبائل الاخرى المتقدمين بقولهم للأشعار ، والثَّانية : الرَّتابة والملل من هيكلية القصيدة المعتادة ، فلجأ الشُّعراء الى التَّجديد بالشَّكل والمضمون أحياناً ، ولربَّما يكون الابتعاد عن المقدمات لأُسباب أخرى كما يقول الدَّكتور حسين عطوان " والرَّاجح أنَّ هذه الظَّاهرة لا ترجع إلى تمرد بعض الشعراء على التقاليد الفنية الثابتة ، وإنَّما ترجع –في بعض جوانبها –إلى ضياع المقدمات من تلك القصائد الطَّويلة "[١] .

وخلاصة فإن البحث الأكاديمي مشوار لا يخلو من عثرات فهو بداية مسار علمي وأرجو من الله التوفيق.

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي: ١٠٩ .

الخاتمة

بعد العناء والجهد المتواصل في التحري عن دور الوعي الفردي لدى الشعراء المفضليات الجاهليين، نقف على أهم ما توصلنا إليه من نتائج وهي:

- كشف البحث عن مدى تأثير الوعي ودوره البارز في تطوير مقدمات القصائد نحو الأفضل، بما في ذلك تعدد أنواع المقدمات أو في بعض الأحيان إلغاؤها تماماً أو تعويض المقدمات الطللية بموضوعات أخرى كالغزل أو الفخر وما إلى ذلك.
- تنوعت المقدمات لدى أغلب الشعراء، ويعزى ذلك إلى الجانب النفسي بوصفه جانباً من الوعي الفردي.
- قد يرجع عدم ذكر الأطلال في قصائد بعض الشَّعراء الى أمرين؛ الأول: عدم تقليد أسلوب الشعراء المتقدمين، والثَّانية: الرَّتابة والملل من هيكلية القصيدة المعتادة، فلجأ الشُّعراء إلى التَّجديد في الشَّكل والمضمون أحياناً، وربَّما يكون ذلك لأسباب أخرى متعلقة بضياع أجزاء من القصائد.

ثبت المصادر

- آثار التجربة الحياتية في الإبداع العربي ،عبد الكريم غلاب، مجلة الاكاديمية المغربية، المغرب ، ١٩٩٢، العدد: ٩٤.
- جمالية الشعر العربي –دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعر الجاهلي، هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،ط١ ،٢٠٠٧.
- ديوان تأبط شراً وأخباره، علي ذوالفقار شاكر، دار القرب الاسلامي، بيروت، ط١ ،١٩٨٤.
- الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، كمال ابو ديب ، مطابع الهيئة المصرية العامة ، مصر ،١٩٨٦.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة ، ابي محمد عبدالله بن مسلم ، تحقيق ، الشيخ حسن تميم والشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار احياء العلوم ، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧ .
- الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت، ط١، ١٩٧٠ .
- العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق ، محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ط١، ١٩٣٤.
- في التحليل النفسي، د . نيفين زيور، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ،ط١، ٢٠١٢.
- لامية العرب، عبدالحليم حنفي، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٨.
- المفضليات ، ابو العباس المفضل بن محمد الضّبي ، شرحه،الانباري القاسم بن محمد بن بشار، تحقيق ،كارلوس يعقوب لايل ، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، ط١، ١٩٢٠.
- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، د. حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ .